الجمهورية العربية المتحدة

وزارة الثقافة



التعريف بابن مالك

ابن مالك
تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد

حققه وقدم له

محمد كامل بركات

الناشر

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

١٣٨٧هـ — ١٩٦٧م

ابن مالك

تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد

المكتبة العربية

تصدرها

وزارة الثقافة
"المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر"
بالاشتراك مع
المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

تقديم

بقلم الأستاذ الدكتور يوسف خليف

أستاذ الأدب العربى بكلية الآداب بجامعة القاهرة

أبو عبد الله جمال الدين محمد بن مالك الطائى الأندلسىّ الدمشقىّ أكبر نحوىّ ظهر فى القرن السابع الهجرىّ فى العالم الإسلامى كله ، ومنْ أشهر النحاة الذين عرَفَهم تاريخ النحو العربى منذ نشأته المبكرة فى القرن الثانى للهجرة إلى اليوم . والواقع أننا — إذا استثنينا سيبويه أبا النحو العربى ، وصاحب « الكتاب » أشهرِ كتابٍ فى النحو — لا نكاد نجد عالما من علماء النحو نال تلك الشهرة العريضة التى نالها ابن مالك صاحب « الألفية » ، حتى ليخيّل للباحث أن ظهورَ ابن مالك يُعَد بداية مرحلةٍ جديدة فى تاريخ النحو العربى يقف هو فوق قمتها الشامخة ، وهى قمةٌ لم يستطع أحدٌ من النحاة منْ بَعْدِه أن يرقى إليها أو يمد بصره طامحاً فى بلوغها . وكأنما انقسم تاريخ النحو العربى الطويل منذ نشأته إلى اليوم إلى مرحلتين أساسيتين ، يقف سيبويه على قمةِ المرحلة الأولى ، ويقف ابن مالك على قمةِ المرحلة الأخرى ، وإذا كانت أهمية سيبويه ترجع إلى أنه هو الذى سَجّل قواعد النحو العربى ، وخطا به الخُطْوة الأولى التى حددتْ معَالمه ورسمتْ اتجاهاته ، فإن أهمية ابن مالك ترجع إلى أنه هو الذى قام بأكبر عمليةِ تصفيةٍ تمّتْ فى تاريخ هذا النحو ، وخطا به الخطوة الأخيرة التى استقرّ بعدها فى صورته الثابتة إلى اليوم . وكأنما ضن الزمن بعد سيبويه بمقاليد خزائنه ليسلّمها لابن مالك فى القرن السابع حتى يفتَح بها هذه الخزائن النفيسة ليستخرج ما فيها من كنوز غالية . وهى كنوزٌ لم تُتحها مقاليد سيبويه للناس كما أتاحتهامقاليد ابن مالك الذى مازلنا نعيش حتى اليومِ على ذلك الميراث الضخم الذى خلّفَه منْ بعده ، وهو ميراث ضخم حقاً يبلغ نحو أربعين مصَنفا فى النحو والصرف واللغة والقراءات .

ولكن أهمية ابن مالك — فى حقيقة الأمر — لا ترجع إلى هذه الغزارة فى الإنتاج ، بقدر ماترجع إلى ذلك المذهب النحوىّ العميق الأثرِ فى النحو العربى الذى أقام دعائمه ، ورفَعَ قواعده ، وأتم بنيانه . ومن حسن حظ النحو العربى أن ابن مالك قد ظهر بعد أن نَضَجَتْ دراساتُه ، واكتملتْ مذاهبه ، وتحددتْ اتجاهات مدارسه ، فقد أتاح له ذلك أن يكون على صلة بكل هذه المذاهب والاتجاهات المتعددة المختلفة التى يبدو — من خلالِ كتبه — أن صلته بها كانت صلةَ وَعْيٍ دقيقٍ وإدراكٍ عميق واستيعاب شامل لها ، وأيضا صلةَ ذكاء لامع عبقرىّ ، وعقليةٍ مبتدعةٍ خلاّقة . فاتصال ابن مالك بالتراث النحوى الضخم الذى خلّفه النحاة السابقون لم يكن اتصالَ منْ يريد أن يَعيه ويستوعبه فحسب ، ولكنه أيضا اتصال مَنْ يريد أن يضيف جديدا

إليه ، أو آن يأتى – كما يقول أبو العلاء – « بما لم يَسْتَطِعْه الأوائل » . وهو ما يصرِّح به فى مقدمته لكتابه « التسهيل » حيث يقول : » وإذا كانت العلوم منَحاً إلهية ، ومواهبَ اختصاصيّة ، فغير مستَبْعَدٍ أن يدخر لبعض المتأخرين ، ما عَسُرَ على كثير من المتقدمين » .

وحقا لقد ادخرَ الله تعالى لابن مالك ما تفوق به على كثير ممن سبقه من النحاة ، وهيّأ له من الأسباب ما أتاح له أن يَصلَ إلى ذلك الجديد الذى لم يستطعه الأوائل ، وهو هذا المذهب الذى شَغل به النحاة منْ بعده ، والذى ظل أساسا لأكثرِ الدراسات النحوية إلى اليوم . وهو مذهبٌ يقومِ على آساس المزج والاختيار من المذاهب السابقة كلها ، مع ميلٍ واضح إلى الحياد والتيسير ، وجُنُوحٍ شديد إلى الاجتهاد والتجديد .

***

و« الألفية » أشهر كتب ابن مالك النحوية ، بل لعلها أشهر كتب النحو العربى بعد « الكتاب » . وهى تستمد شهرتها من أنها خلاصة دقيقة بالغة الدقة لأهم قواعدِ النحو العربى التى يقوم عليها بناؤه الشامخ ، يسرَ نَظْمُها حفْظَها ، وفتَح تركيزها الأبواب أمام العلماء المتأخرين ليُثْبتُوا عن طريق شرحها ، والتعليق عليها ، وبسط ما ركزته ، والإطالة فيما لخصته .

ولكن الألفية – على هذه الشهرة الضخمة التى ظَفرَتْ بها – ليست أهم كتب ابن مالك النحوية ، وإنما هناك « التسهيل » الذى يُعَد – بحق – أهم كتاب من هذه الكتب ، والذروة التى وصل إليها فى دراساته النحوية . وأهمية هذا الكتاب تأتى – فى حقيقة الأمر – من أنه يمثّل فى دقة بالغة خلاصة التجربة النحوية الطويلة العميقة الخصبة التى عاش ابن مالك حيَاتَه لها ، ووهبها كل جهده وطاقته . ومن هنا لم يكن غريبا أن يُشْغل به العلماء طَوَالَ ستة قرون منذ آن ألفه صاحبه فى القرن السابع الهجرى إلى أواخر القرن الثالث عشر ، بل لقد وصل الأمر بأبى حيّان النحوى ، وهو أشد النحاة مخالفةً لابن مالك ، وأكثرهم شَغَباً عليه ، إلى أن يَفْرِض على نفسه ألا يقْرِىْ أحدا إلا فيه أو فى كتاب سيبويه . وهو موقف قد يبدو غريبا ، ولكنه « التسهيل » يفرض نفسه حتى على أشد النحاة تعصباً ضد صاحبه ، كما فرَض « الكتاب » من قبل نَفْسه على نحاة الكوفة المخالفين لمذهب صاحبه واتجاهاتِ مدرسته .

وعلى أهمية هذا الكتاب ، وعلى هذه المنزلة الرفيعة التى وصل إليها ، ظل مطوياً فى ظُلُمَاتِ خزائن الكتب ، لم يقدّر له أن يرى النور إلاّ فى طبعة قديمة صدرت فى مكة المكرمة منذ خمسة وستين عاما ، وهى طبعة لم تتوافر لها وسائل التحقيق العلميّ الدقيق ، ولم تتحقق بها مناهجه العلمية المعروفة لنا الآن . وحتى هذه المطبوعة – على ما فيها – لحقَتْ أخواتها المخطوطات ، فطُويَتْ مثلهن فى بعض خزائن الكتب ، ولم تَعُدْ فى مُتَنَاوَل أيدى الباحثين . ومن هنا أصبحت الحاجة ماسّة إلى بَعْثِ هذا النصّ القيم إلى الحياة ، ونَفْض ما تراكم عليه من غبار السنين ، وأصبح نشره أملاً يراود القائمين على أمر العربية ، وأمنيةً تداعب أحلام طلابها . ومن هنا – مرة أخرى – كان ترحيبى الصادق بهذا العمل الجليل الذى قام به الأستاذ محمد كامل بركات الذى وقَفَ عليه جُهْده السنين ذواتِ العَدد ، ولم يَضن عليه لا بالجهد ولا بالزمن .

***

وأنا أعرف محقق هذا الكتاب منذ أن كان طالباً بقسم اللغة العربية فى كلية الآداب من جامعة القاهرة مشغولاً بالنحو والنحاة، مشغوفا به وبهم شغفاً يملأ عليه كل وقته. وهو شغف دفعه فى دراسته العليا للحصول على درجة الماجستير إلى أن يتخذ من النحو مجالاً له، وهو طريق وعر اختاره لنفسه فى كثير من الرضا والارتياح. ومن بين معالم هذا الطريق المتعددة اختار ابن مالك ليكون فاتحة يستهل بها نشاطه العلمى. وابن مالك — فى حد ذاته — منطقة وعرة من مناطق نحونا العربى، ولكنه — مع ذلك — لم يكتف بهذا فحسب، ولم يقنع به وحده، وإنما اختار من ابن مالك أشد مناطقه وعورة، وهو كتاب «التسهيل» ليدرس ابن مالك ومذهبه النحوى من خلاله.

ولست أخفى أننى — حين عهد إلى بالإشراف على هذا البحث — شعرت بشىء غير قليل من الإشفاق.. الإشفاق على الباحث من البحث، والإشفاق على البحث من الباحث. أشفقت على الباحث لأنى أدرك وعورة الطريق الذى اختار أن يسلكه، وأقدر ثقل العبء، وضخامة التبعة التى أبى إلا أن يحملها، وأشفقت على البحث من أن تنوء به اليد الناشئة التى أبت إلا أن تقوم بأعبائه الثقيلة وتبعاته الجسام. ولكنى لم أكد أمضى فى مراجعة البحث — بعد أن فرغ الباحث منه — حتى أخذت أشعر بأن إشفاقى على البحث قد أخذ يتضاءل، وأن إشفاقى على الباحث قد أخذ يزداد. فقد رأيت اليد الناشئة التى أبت إلا أن تنهض بأعبائه وتبعاته يداً قوية قادرة، وأن صاحبها يمتاز بطاقة ضخمة من الجلد والاحتمال والصبر على وعورة الطريق وثقل العبء. ولكنى كنت أراه يكلف نفسه من أمرها رهقاً، بل يكلف نفسه فوق وسعها. واطمأنت نفسى فى خاتمة المطاف حين قدرت الجامعة هذا الجهد الضخم، فمنحت صاحبه أرفع تقدير تمنحه لطلاب الماجستير بها. وهو الامتياز.

وقد توقعت بعد ذلك أن يمضى الباحث فى طريقه الذى اختاره لنفسه، وأن يقوم بنشر «التسهيل» الذى كان قد بدأ فى تحقيقه فى أثناء دراسته لصاحبه ومذهبه النحوى فيه، والذى كان قد جمع من أجله كل ما وصلت إليه يده من نسخه المخطوطة فى مكتبات القاهرة ودمشق والاسكندرية، وأيضا مطبوعته التى نشرت فى مكة المكرمة من قبل، حتى اكتملت له اثنتا عشرة نسخة هى التى اعتمد عليها فى إخراج هذا الكتاب من ظلمات الخزائن إلى نور الحياة. ومع إدراكى لوعورة الطريق، وما يكتنفه من صعاب، وما يقوم فى طريقه من عقبات، شجعت الباحث على أن يمضى فيه؛ حرصاً منى على تحقيق الأمل الذى طالما راود القائمين على أمر العربية، وبلوغ الأمنية التى طالما داعبت أحلام طلابها. وما زلت أطمع — استمراراً منى فى هذا الحرص — فى أن يظل الباحث مشغولا بالتسهيل حتى يخرج أهم الشروح التى قامت عليه من ظلمات الخزائن إلى نور الحياة.

والله أسأل أن يجزى الباحث عن الجهد الذى بذله فى سبيل إخراج هذا الكتاب فى هذه الصورة العلمية الدقيقة خير الجزاء، وأن يشد على اليد الناشئة التى نهضت بهذا العبء الضخم الذى تنوء به العصبة أولو القوة، حتى تخرج من خزائن تراثنا العربى الخالد كنوزه الغالية النفيسة، تحقيقاً لآمال ما زالت تراودنا، وبلوغا لأمانى ما زالت تداعب أحلامنا.

والله يسدد خطانا، ويجنبنا الزلل، ويعصمنا من فتنة القول وفتنة العمل.

القاهرة فى ١٠ من ديسمبر ١٩٦٤.　　　　يوسف خليف